الشباب القومي والأخلاق

بقلم سميح صعب

سألتقط انفاسي المحمومة واستجمع قواي المبعثرة في كل اتجاه واعزل نفسي ولو ليوم، ولو لساعة، عن هذا التيار الجارف الذي يشدني في اتجاه صاعد بغير ما توقف او استراحة، ذلك لادون بعضاً من الاحاسيس، وحفنة من المشاعر والانطباعات التي يحياها الشاب القومي .. ليل نهار ويجابهها اينما كان .. لانها اشياء على غاية الاهمية . لانها احجار من البناء الكبير، وجزء من الجدول التطوري العام الذي لا يتوقف ولا يرحم!!

إن الانطباعات والاحاسيس التي تعيها الذات القومية هي نقطة تلتقي عندها عوامل شتى مثال ذلك : مؤثرات الحالة الخارجية . والنفسية الانسانية . والغاية القومية النهائية. لذلك تحتم ان تفهم هذه الاحاسيس وتدرس وتبوب وتعرض لتصبح نقطة انطلاق لكل البحوث الاخلاقية التي قد تنبع وتحاك منها..

إن النظم الاخلاقية جديرة بالبحث والتمحيص لما لها من كبير اثر في التأثير المباشر على العمل .. ولما تعكسه على الجماعة من صفات بها تتميز عن غيرها . فكيف تولد هذه الاخلاق ؟؟ وكيف تتمخض ؟؟ وكيف تتبلور وتأخذ شكلها النهائي .. وما هي القوانين التي ترتكز عليها الاخلاق في ماهيتها وحقيقتها .. إن اول خطوة في السيطرة على الاخلاق هي دراستها في طريقها التمخضي دراسة تفصح عن مواطن الضعف والقوة وتفضح الاخطار والمهاوي التي قد تتردى فيها الاخلاق القومية ..

وهناك نوعان من الاخلاق من حيث نشوؤها وولادتها :

١ - تلك الاخلاق المفروضة من (فوق)

٢ - وتلك النابعة من (تحت) .

وأما الاخلاق الفوقية فهي تلك النظم الغيبية التي يفترض فيها الثبات لكونها متعلقة بالطبيعة الانسانية ومشتقة من نظرية ميتافيزيكية في حقيقة الكون .. وهي بذلك تشبه الرداء الموضوع المعد ليلبسه الفرد . واما الاخلاق التحتية فهي التي تنبع رأساً من مفهوم الحركة وتخرج نتيجة مباشرة لاتجاه الحركة وجوهرها الرئيسي الحقيقي وهي بذلك تتكيف تبعاً لها وتشتق منها وتبنى عليها فتظل محتفظة بديناميكيتها وقابليتها للنمو والتغير والتبديل فكأنها بذلك تشابه الشرنقة التي تحيكها الدودة حولها تبعاً لارادتها وحجمها وشكلها .. فمن اي نوع هي أخلاقنا القومية او بطريقة افضل كيف نريدها نحن ان تكون ؟

إن الاخلاق الفوقية الغيبية هي في جوهرها تقييد واستعباد.. وانشوطة محكمة حول اعناق الضحايا .. لخنقهم ضمن قواقع التحديد والتقييد الابدي مع ان الحياة لا تحتمل التقييد لانها ابداً في انطلاق وفي خلق جديد متوتر مندفع .. واما الاخلاقية النابعة من ضروريات الواقعية المبنية من اسفل الى اعلى فهي المجال الحقيقي لنمو الشخصية القومية، ذلك لانها قابلة للتغيير والتحويل . لانها تخترق ذاتها من تلقاء ذاتها ولانها قائمة على التجارب والدوافع المتغيرة المتطورة ..

إن الظاهرة الاخلاقية تصبح مشكلة يوم تقع في طوايا الالتباس والغموض ، ويوم يضيع منشؤها الحقيقي وتتضارب بصددها الآراء وتختلف الاتجاهات . عند ذلك يتحتم التفتيش عن حل لها . والحل يستدعي نظرة تقريرية اصيلة في ماهية الظاهرة الاخلاقية . وعملية النقد هي افضل وسيلة لذلك ، فالنقد هنا هو وسيلة عقلانية لتصفية الاخلاق، وتصفية الاخلاق ما هي الا عملية وضع الصفات الاخلاقية في مكانها الحقيقي من سلم التطور، وتحديد مركزها الفعلي من حيث تلاؤمها وضروريات الوضع وغربلتها ان لم تكن ناتجاً طبيعياً وصرحاً فوقياً للأساس المنطقي التحتي .

إذن فعلى الاخلاق القومية ان تنبع من حقيقة العمل القومي : فلنخط خطوة الى الامام بطرح الفرضيات التي يشتق منها العمل القومي ، استناداً الى كون ذلك يساعدنا في توسيع الموضوع الذي نحن بصدده .

١ - الفكرة ... دائماً وأبداً يفترض وجود الفكرة وراء العمل القومي ، والفكرة هي اولى واقوى نوازع التغيير والتبديل، تنشأ من التحسس الحقيقي لمشكلات الشعب . والفكرة القومية هي دوماً فكرة ثورية بمعنى انها تبطن في

في صميمها جوهراً من الرفض التام والاستبدال الجذري العميق .

٢ – دائماً وأبداً يفترض تحويل الفكرة الثورية الى إرادة قائمة بذاتها... يعني اخراجها الى حيز الواقع وتطبيقها وفرضها وتحقيق مضمونها وتأكيد ذاتها في المجتمع الذي حولها ...

٣ – فعملية تحويل الفكرة الثورية الى إرادة قائمة هي الجوهر الحقيقي للعمل القومي ... لذلك ترتب ان تكون المنبع لكل مشتقاتها . فالأخلاق التي يجب أن يتصف بها الشاب القومي ستعود وترتكز على عملية التحويل هذه ...

٤ – وعملية التحويل هذه ما هي في الواقع الا النضال المستمر ضد عناصر الرجعية وعوامل الفشل وارادة العلائق الاجتماعية لان تبقى . فالنضال هو جوهر العمل القومي .

٥ – الأخلاق إذن هي اخلاق النضال ! هي اخلاق المعركة بالذات .. فالشاب القومي هو دوماً ثوري التفكير ، ثوري النزعات ، وثوريته هي المنظار الذي ينظر به الى كل شيء حوله .

والمعركة تتطلب التضحية وتستدعي الثبات ، والثبات شيء صعب ويحتاج الى تعبئة كاملة للارادة البشرية ..

هذه بكل بساطة الخطوط الرئيسية التي يجب ان تستند اليها الاخلاق القومية . والآن يحق لنا ان نتساءل كيف يحل الشاب القومي شؤونه من خلال هذه الفرضيات ؟ وكيف يجابه التغايرات الفعلية الحقيقية التي يشعرها في اعماقه من خلال هذه الفرضيات؟ وكيف يمتثل لتنوع اشكال النضال وتغايرها، وكيف يقرر ما هو خير وما هو شر ؟ والى اي حد يقبل بالشر وكيف يسلك بين رفاقه واين العلاقة بين كل ذلك وبين وجوده كشاب قومي ؟ ..

هناك خطران كبيران علينا ان نحذر الانزلاق فيهما في بحثنا لهذه الاشياء . أولهما : عبودية العرف والعادة ، ذلك ان النظم الأخلاقية قد تخضع في نشوئها الى حد كبير لما نسميه العادة ، وقد يكون المنشأ الأصلي للعادة عملية من التوافق والحاجة .. غير ان خطرها هو في كونها تلف كل شيء في طياتها بغير ان تفسح المجال لعقلانية التغيير والتبديل بمعنى انها تصبح حاجزاً خانقاً من الجبرية التصرفية يقف في وجه كل شيء ، وصبغة من الاضطرارية تصبغ كل ما حولها وما يأتي بعدها . إزاء هذا الوضع علينا قدر الامكان استثناء العرف والعادة من العملية التمخضية للاخلاق .. واستثناؤها هو عملية من الاستبدال بها تحل العقلانية الواعية محل العادة ويصبح الارتكاز الفكري النقدي اللاعفوي ، الاساس المنطقي الصحيح .. والخطر الثاني هو خطر « الكهانة الاخلاقية » .. وهي تلك النزعة التي تطبع الشاب القومي بطابع التصوف ومنشؤها تصورات خاطئة لبعض الافراد للصبغة الأخلاقية القومية غير مستندة على اساس فكري ومقرونة بالتصورات الجزئية والاوهام الشخصية الخاصة والاتجاهات الفردية المحضة. ونحن حينما نجاهد باحثين عن نسق اخلاقي معين لا يكون مقصدنا ان نحدد فقط ونعرف في حدود النظريات وليس مقصدنا فقط ان نضع حواجز للخير والشر بالنسبة للنضال القومي وإنما نريد ان نؤكد مرة بعد مرة ان النسق الاخلاقي هو تجسيم حي للنظام واستبدال للثواب والعقاب ومقياس للانتقاد الذاتي البناء ودوافع للتوحيد ، وقاسم مشترك اعظم لتصرفات جموع الشباب القوميين ومضاعف للقوى والامكانيات ومسهل لعملية النضال ..

ما ان يصبح الشاب القومي شاباً قومياً حتى يبدأ التعارض الفعلي بينه وبين المجتمع يتضح شيئاً فشيئاً .. ذلك ان النظرة القومية تفترض استبدال كل العلائق الاجتماعية القائمة ..

وما ان يصبح الشاب القومي شاباً قومياً حتى تظهر هناك ضرورة ملحة لان يتكيف من جديد في عشرات من الآفاق

صدر حديثاً

الاتحاد السوفياتي

للاستاذ عبد السلام الادهمي

مشاهد المؤلف في بلدان الاتحاد السوفياتي ، وهي تشكل الحلقة الثالثة من سلسلة في ظل الاشتراكية التي صدر منها من قبل جزءان احدهما عن رومانيا والثاني عن الصين الجديدة .

دار العلم للملايين

الجديدة .. يظهر هذا التعارض اول مـــا يظهر في التعارض القائم بين النظام العائلي والشاب القومي .. وهذه مشكلة من اكبر مشاكل الشاب القومي لانـــه في العائلة يلتقي القديم والجديد وتلتحم الوجهات المتعارضة المتقاطعة في نقطة واحدة. الشاب القومي يريد المخاطرة والمجازفة بكل شيء ، بالوقت ، والمال والجسد والروح .. والعائلة ابداً متحفظة وهي بدافع غريزي منها تعمل جاهدة على اغلاق الطريق امـــام الشاب القومي شعوراً منها ان في ذلك الولاء والحب لمعبود جديد فقدانه !! فكيف يوفق الشاب القومي بـين مطـالب العائلة ومطالب النضال .. هذه مشكلة تعانيها الغالبية الكبرى من جموع الشباب ! والحل في نظري يتطلب بعض المرونـــة من قبل الشاب القومي .. وعليه ان يتبع طريقة (معاوية) في شد الحبل ، ويتحمل قدر المستطاع هذه المتناقضـــات ويوفق بينها جاهداً بكياسة واعتدال ، الى ان يصبح من المستحيل عليه التوفيق . عنـــد ذلك عليه ان يتمرد بكل بساطة وقساوة على كل قيد يهدد طابعه النضالي بالانهيار ..

ما ان يصبح الشاب القومي ، شاباً قومياً حتى يجابه ضرورة ملحة في تكييف اوقاته ونزعاته واهوائه من جديد امتثالاً لتكتل الاعمال والواجبات عليه... وهذا يحتـــاج الى تعبئة جديدة في الوقت المصروف وتغيير في كنه التصرفات التي يفترضها الشباب .. وعلى سبيل المثال: المشكلة الجنسية، فليس يخفى ان الشاب العادي اكثر ما يشغله القضايا الجنسية بحيث تستغرق كثرة من وقته .. فما هو موقف الشاب القومي من ذلك ، ارجو ان يلاحظ ان هذه اشياء ليست تافهة او مبتذلة لانها مشكلة اجتماعية عامة تتطلب البت بأمرها .. فـالغريزة الجنسية لا يمكن ان تحطم ولا يجوز ان تكبت او تقهر .. ولكنها يمكن ان تخفف ، وتلطف ، وتحول وتستغل وتكتم .. فتصبح هذه الاشياء قضايا خاصة بالشخص مكتومة ومخففة ! ويصبح من المحتم إسقاط اي رغبة او دافع مهما كان مهماً في حالة تعارضه مع الواجبات القومية او تأثيره في التعبئة الوقتية للشاب القومي ..

واما التغييرات في الداخل فهي كثيرة وعديدة ، يصبح الداخل ديناميكياً مندفعاً ، وتصبح الشخصية القومية شيئـاً فشيئاً منبعاً متزايداً للطاقات ... وتبدأ الاحاسيس والمشاعر والانطباعات تتكتل فيما بينها وتخوض عملية من التفاعـــل الحاسم السريع مع نفسية الشاب القومي فتتغير شخصيته تدريجياً ويكتسب صفات نادرة ما كانت موجودة من قبل .. ويأخذ بالشعور بالنظام المتكامل في داخله وهذا النظام في الداخـل يفترض ويطالب بايجاد النظام في الخارج وتنقلب المفـــاهيم الاخلاقية القديمة رأساً على عقب ، ويتسم الشاب القومي بصفة القيادة ونزعة الجرأة وحب المخاطرة..

كل ذلك لانه بدأ يشعر شعوراً طاغياً عارمـاً بالمعركة ، ووجود المعركة وضرورتها وقوتها ... كل ذلك لان ارادته بدأت تندمج وتذوب في الارادة القومية المكافحة دوماً من اجل تحقيق ذاتها على شكل امة ونظام حضاري . ويتدرج هذا الشعور بالمعركة من كونه جزئياً الى كونه كلياً.. وكلما ازدادت كليتها تبلورت الاخلاق في الشـــاب القومي وتمركزت في صميمه.. فالمعركة بمفهومها المجرد هي المقصد وليس بمعناها المحدود المقيد .. وليست هي فقط المعركة السياسية او العسكرية او العقائدية وانما هي المعركة بكل اشكالها وبمعناها الجوهري العميق البعيد الموحي بالصراع واهميتـه في وجود الامم ..

واما الانقلاب الكبير في حياة الشاب القومي فهي ساعة يقف وجهاً لوجه امام المعركة ويطالبه دوره التاريخي ان يسهم فيها بأوفى نصيب ..

سمير حداد

صدر حديثاً

المعطف

لغوغـــول

اروع ما كتبه هذا الاديب الروسي الشهير ، نقله عن الاصل الروسي .

الدكتور بديع حقي

الثمن ليرة لبنانية — دار العلم للملايين